الأمانة العامة
كربلاء المقدسة
العتبة الحسينية المقدسة
المصباح
مجلة فكرية فصلية متخصصة
تعنى بالدراسات والأبحاث القرآنية
تصدر عن
الأمانة العامة
للعتبة الحسينية المقدسة
العدد السادس - صيف (٢٠١١م-١٤٣٢هـ)

# جَمالِيَّاتُ الصُّورَةِ في الفَنِّ اللَّفْظِيِّ

## مُقَارَبَةٌ تَرَاسُلِيَّة / آيَةُ النُّورِ مِثَالاً

أ.د. عبد النّبي اصطيف
كليّة الآداب - جامعة دمشق

هل للصورة أهمية في الفن اللفظي Verbal Art وبخاصة الفن الشعري؟

يبدو الجواب عن سؤال كهذا بدهياً، وهو بالإيجاب لا محالة. وهل ثمة من يماري في أهمية الصورة في الشعر؛ وهل ثمة حاجة للتذكير بانشغال البلاغة العربية -بعلومها المختلفة- بالصورة الشعرية تشبيهاً، واستعارة، وكناية، ومجازاً للتدليل على الطيف الواسع لهذا الانشغال بالصورة من جهة، والتنوع الغني اللافت النظر في أشكال هذا الانشغال.

هناك من يزعم أن الشعر ليس غير رسم بالكلمات، بل إنه مستعد للمضي في قناعته هذه إلى حد إخراج ديوان شعر يحمل عنوان «الرسم بالكلمات» وهناك من يؤسس الشعر على قاعدة من الصورة، في دقتها وتكثيفها ووضوحها، كالصوريين imagists، وهناك من يماهي بين الصورة والشعر كما هو شأن المروّجين للشعر المحسوس Concrete Poetry، وهناك وهناك... ولكن هل ثمة من داع إلى حشد الشواهد والأدلة والأمثلة في أمر يبدو بدهياً إلى حد يجعل مناقشته نوعاً من فضول القول. ذلك أن شأن الصورة في الفن اللفظي عظيم، ويكفي المرء أن يذكّر بما نفعله عندما تعجز اللغة عن وصف المجردات في عوالمنا من أفكار ورؤى وهواجس وأحاسيس ومشاعر وعواطف فنلجأ عندئذ إلى عالم المحسوسات لعله يسعفنا في الإفصاح عن هذه المجردات

البعيدة التداول عن المتلقي الذي قد يصعب عليه التحليق معنا، أو مجاراتنا في متابعة ما يدور في عالمها وعالمنا الداخلي الذي يحتضنها بمقدار غير يسير من الحميمية. لأننا نرى أن اللجوء إلى الصورة وحده الكفيل بمساعدتنا في تجسيد ما يصعب الحديث عنه أو وصفه على نحو دقيق ييسر على المتلقي فهمه واستيعابه ومن ثم التماهي مع صاحبه على نحو من الأنحاء أو درجة من الدرجات.

ومن المعروف أن للصورة أدواتها: فثمة الضوء والظل، وثمة الألوان المختلفة، وثمة المنظور Perspective وثمة الأبعاد الثلاثة التي تطبع كل فن مكاني spatial art أساسه الفسحة space التي تشغلها هذه الأدوات وتستثمر من جانب الفنان لتحقيق أغراضه الفنية وفوق الفنية. والتعامل مع هذه الأدوات لا يكون إلا تعاملاً بصرياً visual عندما تكون قابلة للإدراك البصري، أو خيالياً imaginative من خلال إنشائها بقوة الخيال عندما تكون صلتها بالواقع صلة واهية.

ومنشئ الفن اللفظي يستعمل الصورة؛ لأنه يرى فيها خير عون على إيصال رسالته بشكل عام، ولأنه يودّ متلقيه بشكل خاص أن يتعامل مع هذا المكوّن من مكوّنات رسالته بصرياً على نحو يجعله يتبين وجهاً محدداً منها لا سبيل إلى تبيّنه إلا عن طريق الإدراك البصري visual perception. وإذ يلجأُ هذا المنشئ إلى الصورة فإنه ينتقل بمتلقيه من المجرد إلى المحسوس (بصرياً)، ومن فن المسموع إلى فن المرئي، ومن الفن اللفظي إلى الرسم، ويحفزه على مواكبته في هذا الانتقال، حباً وكرامة، إذا ما أراد أن يحسن الإصغاء إلى المرسل، أو مشاركته في عمله أو خلقه أو إبداعه بوصفه مبدعاً مشاركاً Co-creator على حد تعبير رولان بارت.

وينطوي هذا الانتقال من فن جميل إلى فن جميل آخر على إنشاء علاقة خاصة بين تجسيدين فنيين ينتميان أصلاً إلى فنين جميلين (يختلفان في الأداة إذا لم يختلفا في الموضوع ونمط المحاكاة في عرف أرسطو)، ولكنهما يرتبطان بوشائج قوية وطيدة

الأركان مؤسسة على وحدة الفنون-علاقة تدرس عادة ضمن ما يعرف بـ:

- الدرس المقارن للأدب على الطريقة الأمريكية قديمها وراهنها.
- التراسل بين الفنون وبخاصة لدى الفرنسيين الذين عنوا بهذا الضرب من الدراسات الجمالية ولاسيما كبير علماء الجمال لديهم إيتيان سوريو في كتابه تراسل الفنون: عناصر علم الجمال المقارن La Correspondance des Arts: Elements L`Esthetique Comparee ،1[1] الذي ترجمه إلى العربية المرحوم الدكتور بدر الدين القاسم الرفاعي ونشرته وزارة الثقافة والإرشاد القومي في سورية عام ١٩٩٣.

وبالتالي فنحن لسنا في حاجة إلى تسويغ العناية بهذه العلاقة (أو هذا الانتقال) أو دراستها، وهو ما يسعى البحث الحالي إلى القيام به من خلال محاولة تذوق مبدئية لأنموذج ينتمي إلى الفن اللفظي وهو آية النور المعروفة (سورة النور: الآية ٣٥).

## آية النـور

١- النـص: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾(سورة النور: الآية ٣٥).

٢- الشرح: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: أي نورها مستمد منه، أو هو سبب النور الذي يشملها، فنوره وسع السموات والأرض.

﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾: لما كان يصعب على الإنسان استيعاب فكرة النور الشامل للسموات والأرض، وتصوّر نور كهذا، وهو العاجز حتى أن ينظر إلى الشمس لشدة نورها، كان لابد من تضيق ساحة التصوّر ليسهل عليه إدراك هذا النور، وهكذا جاء المثل.

ونوره: نور الله عز وجل.

(١) انظر: إيتيان سوريو، تقابل الفنون.

﴿كَمِشْكَوٰةٍ﴾: موضع الفتيلة من القنديل. وقيل هي كوة في البيت، والمعنى الأول أولى وأفضل للصورة والدلالة معاً.

﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾: المصباح هو الذُّبالةُ التي تضيء.

﴿ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ﴾: أي أنّ هذا الضوء مشرق في زجاجة صافية.

﴿ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ﴾: كوكب مضيء، شبه الزجاجة الصافية التي يتلألأ فيها النور، أو يتقد، بالكوكب المضيء المبين الضخم.

﴿يُوقَدُ﴾: هذا المصباح أو الكوكب يستمد نوره من زيت الزيتونة.

﴿مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾: شجرة مباركة من الله لأنها على خلاف الأشجار، التي تنبت ثمراً يتخذ منه الزيت وقوداً للمصابيح، لا تموت إلا أن تجتث أو تحرق.

﴿زَيْتُونَةٍ﴾: شجرة الزيتونة لا تموت حتى ولو تقدم بها السن، لأنها تنبت من فروع جذوعها الممتدة على الأرض، أو من امتدادات جذورها القريبة من سطح الأرض، خلفة جديدة دوماً. من هنا نجد إلحاح شعراء فلسطين المحتلة على نعت أنفسهم بزيتون الأرض الذي يتحدى الموت الذي يتهدده به العدو الصهيوني.

﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾: أي تقصدها الشمس من أول النهار إلى آخره فيجيء زيتها صافياً معتدلاً مشرقاً، وقيل هي بصحراء لأن ذلك أصفى لزيتها.

﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ﴾: لأنه أجود أنواع الزيت، فهو مستمد من شجرة مزروعة في مكان فسيح بادٍ ظاهر ضاحٍ للشمس تقرعه من أول النهار إلى آخره ليكون ذلك أصفى لزيتها وألطف.

﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾: أي أن هذا البيت نور في حد ذاته، ويوقد فتتقد النار به، فيصبح نوراً على نور. فهو نور النار ونور الزيت عندما يجتمعان.

﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾: أي من عباده، فمادام الله قد وسع الكون بنوره فمن الطبيعي أن يكون نوره ميسّراً متاحاً لمن يشاء من عباده.

﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ﴾: توضيحاً وتيسيراً للفهم وللاستيعاب.

﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾: أي بمن يهتدي ومن يضل.

٣- التحليل: روي عن راهبة متحمسة للدعوة إلى ما تؤمن به أنها واجهت امرءاً عنيداً مجادلاً، كاد أن يدفعها إلى حافة اليأس عندما وجّه لها سؤالاً بسيطاً، ولكنه جوهري، هو: ما الإيمان؟ فقد حاولت جاهدة الإجابة وانتهت إلى الاعتراف بأنه شيء لا يمكن وصفه، وأنه في الحقيقة إحساس مفعم بالرضى والتسليم والانقياد حباً وطوعاً لله. فما كان من مجادلها إلا أن قال: «مادمت لا تستطيعين وصف الإيمان فقد خاب سعيك، وما تتحدثين عنه غير موجود إلاّ في نفسك، فاقنعي من الغنيمة بالإياب».

ويبدو أن الإجابة قد استفزتها فصفعت الرجل على وجهه بكل ما تملك من حماس معزز بالغضب وشيء من قوة «القوارير»، فتألم الرجل، وحار في أمرها، وارتبك إلى درجة أعجزته عن الكلام. فما كان منها إلا أن سألته: بم تحسّ؟ قال: بألم شديد وغضب أشد، فقالت صفه لي، وكان جوابه أن ذلك مستحيل عليه وعلى غيره، وفي نشوة انتصار المؤمن على عناد المجادل قالت الراهبة متشفّية: «مادمت غير قادر على وصف ألمك، فإنه غير موجود إلا في نفسك وحدك، ولا تتوقعنّ أي تعاطف مني». ثم أردفت: «الألم يحس فقط، تماماً مثل الإيمان، وعجزك عن وصفه مماثل لعجزي عن وصف الإيمان، ولكن كلاهما موجود في النفس».

ولكن كيف يمكن تصوير هذا الإحساس/ الإيمان المستعصي على الوصف المباشر، أو بعبارة أخرى، كيف يمكن تقريبه من الذهن الإنساني؟

لقد أحبّ الله عز وجل أن يقرّب فكرة الإيمان/ أو الإحساس المفعم بالرضى والتسليم والانقياد حباً وطوعاً للخالق والذي يعمّر عادة نفسَ المؤمن، فذكر عن نفسه أنه نور ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ يسع السموات والأرض، وضرب مثلاً لهذا النور المشكاة ليقرّب فكرة النور الذي يشمل الكون كله. فهذا النور الشامل للكون لا يمكن لذهن المؤمن تصوّره، وهو الذي يدرك النور من خلال حاستي البصر

واللمس فضلاً عن الحس الداخلي بالنور. ولذلك فإنّ الله سبحانه يؤطّره بصورة قابلة للإدراك الإنساني هي صورة المصباح المتوضّع على مشكاة والمحاط بزجاجة صافية: تشفُّ عنه من ناحية وتحميه من أية نسائم أو رياح قد تطفئه من ناحية أخرى. وهذا النور المحمي من أي مؤثر خارجي بهذه الزجاجة الصافية مستمد من مصدر لا ينضب هو هذه الزيتونة: الشجرة المباركة التي لا هي شرقية ولا غربية ويكاد زيتها يضيء لصفائه ونقائه. ولنلاحظ أن الزيتونة تمتاز عن باقي الشجر بأنها مباركة من جانب الخالق الذي أقسم بها في محكم تنزيله أولاً، وأنها متجددة الحياة ثانياً. وفضلاً عن ذلك فإن هذه الزيتونة، التي يُعصر زيتونُها ويُتخَذ زيتُها وقوداً للمصباح، شجرة متميزة عن باقي أفراد صنفها بكونها معرضة للشمس من مطلعها إلى مغيبها، ولذلك فإن زيتها صافِ إلى درجة الإشراق فهو نور قبل أن تمسه النار وعندما تمسّه يغدو نوراً على نور.

وهكذا فإن النور (على النور) المتقد في المصباح يتمتع بـ: حماية من العوامل الخارجية بواسطة الزجاجة الصافية التي تقيه أي تأثير خارجي قد يطفئه وتنشر ضوءه في آن معاً.

- استمرارية لا تتوفر لغيره لأنه مستمد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية، أي مستمد من مصدر لا ينضب، وبالتالي فإن النور- الزيت سيستمر في اتقاده: نوراً على نور حتى كأنه الكوكب الدرّي.

وبالإضافة إلى ذلك إن النور (على النور) المتقد في الزجاجة ينعكس (نتيجة توضّعه في هذه الزجاجة التي تشكل عدداً لانهائياً من المرايا المتوازية) إلى مالا نهاية ليتألق كما يتألق الكوكب الدرّي.

إنها صورة النور المتّقد أبداً–نور الله، الإحساس بوجوده، والذي هو معادل للإيمان الذي يستشعره المؤمن في نفسه، ويحفز سلوكه في مختلف وجوه حياته. وهذا النور متاح ميسّر لمن يشاء، وكيف يمكن لله عز وجل أن يضنّ به أو يبخل على عبد من عباده، إلا من ظلم نفسه وشاء أن لا يطاله النور، فابتعد عنه.

لقد يسّر هذا التركيز للنور، الشامل للسموات والأرض في صورة المشكاة التي يتوضع عليها المصباح الذي يتقد بنور أو زيت كالنور مستمد من شجرة مباركة متميزة، ثم إسقاطه على الكوكب المضيء من خلال تشبيه الزجاجة التي تحتوي المصباح، يسّر على من له قلب وألقى السمع وهو شهيد أن يستوعب فكرة إحساسنا بوجود الله من خلال تصورنا، وعلى هذا النحو، لفكرة النور الذي نحسه عادة دفئاً يدغدغ أعماقنا ويبعث فينا السكينة والطمأنينة والراحة. وكيف لا يكون له ذلك وهو نور الإيمان، ولا ننسى أن الإحسان هو أن نعبد الله كأننا نراه، وهذه الصورة خير ما يأخذ بيدنا لنبلغ بإيماننا درجة الإحسان.

ولنلاحظ أن الصورة تتمتع بدينامية تنظمها حركة التحويم» الزوم zoom "لكاميرا محمولة تبدأ بنظرة شاملة للكون تنحدر بالتدريج zoom in لتركز الأنظار في المصباح الذي يوضع على المشكاة داخل الزجاجة ثم تنطلق من جديد وتتسامى بحركة تحويم معاكسة zoom out مرافقة نور الكوكب الدري الذي شُبّه نور المصباح به إلى سائر الكون الجديد.

واللافت للنظر في هذه الصورة ألوانُها المريحة: الأخضر، والأصفر، والأبيض، فضلاً عن لون جذع الشجرة، ولون الضياء المنبعث من الكوكب الدري الذي يشي بالهداية التي هي نقيض الظلام الذي لا يقود إلا إلى الضلال. (انظر الشكل التوضيحي).

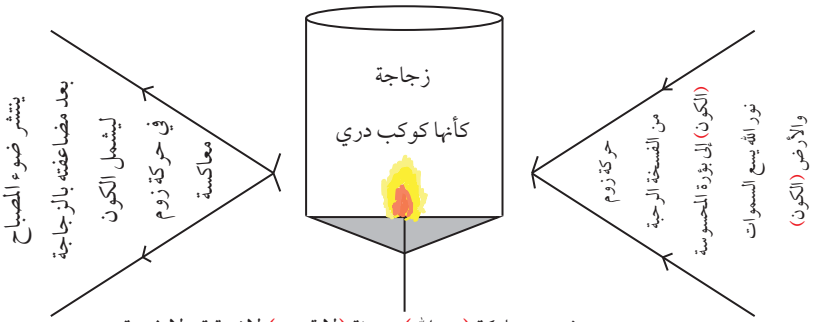


زيت مصدره شجرة مباركة (من الله) زيتونة (لا تموت) لاشرقية ولا غربية
(تتعرض للشمس من أول النهار إلى آخره فيجيء زيتها صفياً مشرقاً)
يكاد زيتها يضيء (لصفائه) نور على نور (بعد أن مسته النّار)